د . حسام الخطيب

الموضوع الفلسطيني في القصة السورية

توطئة :

يؤلف ادب النكبة تيارا بارزا في الادب العربي الحديث، والاسهام السوري فيه يصعب ان يدرس على حدة . واللوحة التي يقدمها هذا البحث عن الموضوع الفلسطيني في القصة السورية بين النكبتين (١٩٤٨ ـ ١٩٦٧) يقصد بها ان تساعد على رسم الخريطة العامة للموضوع الفلسطيني في القصة العربية وربما في الادب العربي الحديث .ويزيد الامر صعوبة ان كثيرا من الاعمال القصصية التي تعتبر اشد التصاقا بموضوع النكبة الفلسطينية كتبها ادباء فلسطينيون اضطرتهم طبيعة ظروف الشتات أن يتنقلوا بين اقطار عربية مختلفة مما يدفع المرء الى التردد في اعتبار انتاجهم جزءا من الانتاج المحلي لاي قطر عربي . وفي حالة الادباء الفلسطينيين الذين بدأوا نشاطهم الادبي في سورية تبدو المسألة لافتة للنظر . فغسان كنفاني مثلا لم يلبث بعد بدء نشاطه الادبي ان غادر سورية الى الكويت حيث بدأ نجمه يلمع هناك ، ثم انتقل بعد ذلك الى لبنان حيث تفجرت طاقاته الفنية ولا سيما في مجال القصة ذات الموضوع الفلسطيني (١) . ويوسف الخطيب الذي اسهم في القصة الفلسطينية في مجموعته (عناصر هدامة)انهى دراسته الثانوية في فلسطين ثم انتقل الى سورية ثم اقام زمنا في هولندا وفي لبنان وفي اقطار عربية أخرى ثم عاد الى سورية فيأوائل الستينات . ونواف ابو الهيجا بدأ نشاطه في العراق ثم اقام بضع سنوات في سورية ثم غادرها الى الكويت . ويوسف جاد الحق نشر معظم انتاجه في مصر وظل وجوده في الساحة الادبية السورية محدودا ، على الرغم من ان سورية صارت موطنه الثاني بعد النكبة. ان هذه الامثلة التي تكاد تؤلف القاعدة العامة تدفع الباحث الى اعتبار انتاج الكتاب الفلسطيني في هذه المرحلة ظاهرة خاصة لا تدخل في الاستنتاجات العامة الا حين تتوافر شروط التجانس مع ادب المرحلة (٢) .

ولا بأس في التذكير بأن ادب النكبة يتناول هنا من زاوية الادب العربي في سورية ، وبالطبع هناك الزاوية الاخرى الاهم وهي زاوية التيار الفلسطيني في الادب العربي الحديث التي لا شأن لهذا البحث بها والتي يمكن للظاهرة المشار اليها أن تأخذ من خلالها الاعتبار الذي تستحق في مجال غير هذا المجال .

وهناك صعوبة اخرى لا بد من أن تضاف الى الصعوبات التي سبق ذكرها ، وهي ان معظم الكتاب السوريين تطرقوا الى الموضوع الفلسطيني بشكل او بآخر وهم احيانا يعالجون هذا الموضوع معالجة رئيسية واحيانا يمرون به مرورا سريعا من خلال موضوعات اخرى . وهكذا لا يكاد يخلو انتاج اي قاص عربي سوري في هذه المرحلة من الاشارة الى مأساة فلسطين انطلاقا من الالتزام القومي الذي يعبر ادب القطر . وبقدر ما يبتهج الباحث هنا لوفرة الاشارات الى هذا الموضوع من جهة فانه ، من جهة اخرى ، يواجه صعوبة حصر الموضوع وتحديد اتجاهاته والتوصل الى تصنيف للظواهر المشتركة ، ومن هنا كان البحث الحالي انتقائيا لا استقصائيا .

قبل النكبة

وهكذا في ضوء الاحترازات السابقة يمكن للمرء ان يشير بادىء ذي بدء الى ان القصة العربية في سورية كانت سباقة الى التحسس بالقضية الفلسطينية والتفاعل معها كما كشفت عن حماسة واندفاع شديدين باتجاه التصدي للعدو ومنذ ان قويت بوادر المشكلة الفلسطينية اخذ الكتاب العرب السوريون يكتبون عن فلسطين. وكان الدكتور شكيب الجابري من اوائل الذين عالجوا هذا الموضوع في اطار من الحماسة القومية والدينية .

وفي روايته (قوس قزح) التي كتبت قبل الحرب العالمية الاولى (٣) ونشرت في دمشق عام ١٩٤٦ نجد مشهدا تاريخيا يستحق ان يسجل كمثال للشعور العربي السوري المبكر بالخطر الصهيوني وبالمسؤولية في مواجهة هذا الخطر . ويحمل المشهد عنوان « صهيوني يتكلم » (٤) ، ووصف عنف الدعوة الصهيونية في نهاية العشرينات ومستهل الثلاثينات في أوربا ، ويبدأ المشهد على النحو التالي :

« وقف جابوتنسكي ،كبير خطباء الصهيونية الحديثة ، في قاعة من قاعات برلين العامة يعرض القضية الصهيونية ـ والصهيونية اذ ذاك في الاوج من دعوتها ـ ويدافع عما لفقته المتطرفة من آراء واهداف . وكلما سنحت له الفرصة رمى العرب خصوم الصهيونية

---

(١) استشهد المرحوم غسان كنفاني في بيروت على اثر انفجار قنبلة في سيارته بتدبير من عملاء المخابرات الصهيونية والاستعمارية سنة ١٩٧٢ .

(٢) هذا هو المقياس الذي اقترحه في المشكلة المنهجية المتعلقة باسهام الادباء الفلسطينيين في الادب العربي الحديث ويتوقع ان تطرح هذه المشكلة بشدة مع نمو الدراسات الادبية ذات الطابع المحلي في الاقطار العربية ، ذلك ان هذا الاسهام يخلق مشكلة منهجية ذات شقين : الاولى من زاوية الدراسة القطرية او المحلية والثانية من زاوية دراسة ادب النكبة بجملته .

(٣) وفقا لتصريحات المؤلف في اكثر من مناسبة .

(٤) قوس قزح ، ص ١٤٨ ـ ١٥٣ .

الالداء ، بسهام دقيقة نافذة ، ظاهرها بريء مسالم وفي باطنها كيد عميق .. »

ويمضي المشهد في تسجيل المغالطات التي كان يستخدمها جابوتنسكي للتلاعب بعقول سامعيه من الاوروبيين وعواطفهم ، وهم الجاهلون بالحقائق الاساسية للقضية وبالنوايا الصهيونية السيئةالتي كان يغلفها جابوتنسكي بثوب من بليغ القول وبتاكيدات مستمرة على قيم السلام والاستقرار والانسانية (٥) . وفي نهاية المشهد يشعر جابوتنسكي أنه قد احكم سيطرته على نفوس الحاضرين وبلغ من قناعاتهم حدا طمأنه الى استعدادهم للاستجابة لكل ما يريد ،ويسمح لنفسه أن يلقي السؤال التالي :

« والان ، أيها السادة ، ماذا عمل رجالنا من فلسطين ؟ هل جعلوا منها جنة ام جحيما ؟ » .

ولنترك للجابري الان ان يقص ما حدث بعد ذلك ، اذ ان كلماته تحمل من الصدق والحرارة ما لا يمكن توليده في اي أسلوب وسيط :

« وما كاد يقف هنيهة ليقرأ الجواب على الوجوه حتى انبعث في القاعة صوت حاد صائحا : بل جعلوا منها جحيما !

التفت الناس جهة الصوت الجريء دهشين فرأوا ، وهم بين محنق ومستغرب ، شابا طويل القامة ، اسود الهامة،ذا عينينرحبتين، فيهما بعض جحوظ وسذاجة ومن الايمان قدر وفير . وسكت الشاب بعد أن ألقى بكلمته التي افلقت الجمع . الا انه ظل واقفا يلقيعلى الناس المتحيرين من حوله نظرة اشد حيرة كانه يسائلهم : أليس فيكم من ينقض عليّ وينتقم ؟ الا انهم ما لبثوا ان استفاقوا من الدهشة وتقدم بعضهم منه وتكاكأوا عليه ، واخذوا يزجرونه ، وكلما امعنوا في هياجهم أمعن هو في استخفافه وهزئه ، ثم قال بصوت لا تدري أهو الى السذاجة ادنى ام الى الخبث :

يا بني اسرائيل . ما بالكم وقفتم حيال عربي فرد لا يملك عن نفسه دفعا وقفة المتهيب الحيران ؟ أفاتتم الذين تاهبوا لنزال قومي الاشداء ؟! .. اتقوا الله في اجسادكم اللينة فما اراها خليقة باحتمال ما تنتظرون من مجد عظيم ». (٦)

ان الجابري لا يزودنا بكثير من التفاصيل حول الصوت العربي وحججه في حين انه يعني بنقل الحجج الصهيونية التي كان يتشدق بها جابوتنسكي ورهطه . وبالطبع يعكس هذا الموقف الروائي الموقف الواقعي في ذلك الحين . فالصهيونيون كانوا قد قطعوا شوطا طويلا في تهيئة الرأي العام الاوروبي لتقبل ما كانوا يتهيأون له في فلسطين من اقامة الدولة اليهودية ، في حين كان الصوت العربي معدوما تماما ، ويصور لنا الموقف الروائي ذهول الدعاة الصهيونيين وجمهرةالحاضرين من سماع اية حجة قادمة من الطرف العربي ، ذلك ان اذهان الصهيونيين والاوروبيين على السواء كانت تفترض عدم وجود طرفعربي اطلاقا ، ومنذ أيام هرتزل واسرائيل زانغويل من بعده قامت الدعوة الصهيونية على اساس تطمين نفسها وتطمين الاوروبيين ان «فلسطين ارض بلا شعب ويجب ان تعطى لشعب بلا أرض » . ويذكر التاريخ ان (وايزمن) حين زار فلسطين في مطلع الثلاثينات ، اي في فترة انتعاش نشاط جابوتنسكي استغرب وجود مقاومة عربيةفلسطينية للمخطط الصهيوني . ويمكن أن يستدل الانسان من موقف البطلالعربي في رواية الجابري على الامور التالية :

١ ـ لم يكن لدى العرب في ذلك الحين اي نوع من انواع منطق المحاجة للرد على الادعاءات الصهيونية .

٢ ـ كانت الوقفة العربية فروسية وعاطفية وجريئة ، لا يتوافر فيها الحد الادنى من الاستهداف والتكتيك ، وبالمقابل كان المنطق الصهيوني ممنهجا ومبنياوفق خطة واضحة لاصحابها ـ وكذلك للمؤلف الذي يظهر وعيا نظريا لبطلان الحجج الصهيونية .

٣ ـ هناك استخفاف كبير بقوة الصهيونيين . وهم هنا يهود جبناء ضعاف لا تقوى عريكتهم اللينة على منازلة العرب الاشداء !! وان العربي ليشفق عليهم ويهزأ بهم لانه يبدو متاكدا من قوة قومه وشدة بأسهم !! وههنا مقتل الموقف العربي في ذلك الحين روائيا وواقعيا .

وقد استمر الجابري خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها في معالجة الموضوع الفلسطيني في القصص القصيرة التي كتبها خلال هذه الفترة ، وتعكس هذه القصص تجاربه الواقعية وتجارب ابناء جيله في بداءة الصدام مع الغزوة الصهيونية ، كما تعكس اهتمام العرب السوريين وقلقهم ازاء تطامح الصهيونية من جهة وحماستهم من جهة اخرى لخوض المعركة المتوقعة في فلسطين ، وان كانت توقعاتهم تكشف عن سوء تقدير لقوة الصهيونيين ومبالغة في تقدير قوة العرب كما رأينا في (قوس قزح) . ويمكن أن نشير هنا بوجه خاص الى قصة الجابري التي تحمل عنوان (سنقاتلهم في فلسطين) ،التي نشرت قبيل نكبة فلسطين . وهي تدل على ان موقف الرأي العامالعربي كان قائما على الاستهانة بقوة العدو الصهيوني والاعتداد (الصوفي)بفوه العربي ، حيث كان الناس يوازنون بين استعدادات الصهيونيين المدروسة وبين العرب الذين لم يعدوا للواقعة المقبلة عدتها ومع ذلك لا يصدقون أن (اليهود) يمكن ان يهزموا (العرب) ، بل كانوا على شبه يقين بأن القوة العربية المختزنة خلال العصور سوف تنتفض فجاة لتحسم المعركة بموقف اصيل خارق . ان قصة (سنقاتلكم في فلسطين) تمثل هذا المعتقد تماما ، وتتنبأ به وتحاول ان تمنحه (قابلية تصديق Credib lity) خاصة .(٧) ان البطل العربي شاب وديع رقيق يجد نفسه في أحد المحافل في أوروبا (برلين) وجها لوجه أمام الصهيوني (شير) ذي البنية القوية والنبره المتغطرسة . ولا يطيق العربي صبرا على مزاعم الصهيوني فيتحداه ويخيل للناس أن العربي هو الخاسر لانهم يحكمون على (الظاهر) ، ولكن العربي يستأسد وتتفجر فيه قوته العربية الكامنة فيدحر الصهيوني وينتصب ظافرا ويقول لليهود : هكذا سنقاتلكم في فلسطين .

وبالطبع لا ينتظر المرء الشيء الكثير من القصة العربية في سورية خلال مرحلة ما قبل النكبة ، وحسبها ـ على أي حال ـ أنها اظهرت تحسسا مبكرا بالخطر الصهيوني ولفتت الانظار الى ضرورة المبادرة بالتصدي له . ولم يكن من السهل على كتاب القصة الاوائل معالجة الموضوعات القومية في هذا النوع الادبي ، فتلك تجربة جديدة لم تكن تستند الى اية قاعدة موروثة، ومن هنا تعتبر معالجة الجابري للموضوع الفلسطيني تجربة رائدة في تاريخ القصة العربية في سورية . ويزيد من تقديرنا لهذه التجربة أن القصة نفسها كانت تخوض في ذلكالحين معركة صعبة للاعلان عن مولدها واحتلال مكانتها بوصفها فنا أدبيا لائقا . وحين أتيح لهذا الفن الادبي ـ بعد النكبة مباشرة (٨) ـ أن

ـ التتمة على الصفحة ـ ٧٣ ـ

(٥) من المعروف ان جابوتنسكي من اكثر دعاة الصهيونية تطرفا وهو يعتبر الاب الروحي للارهاب الصهيوني .

(٦) قوس قزح ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

(٧) ذكر لي الجابري مجددا ان هذه القصة وبعض قصصهالمتعلقة بفلسطين تحمل تجاربه الخاصة ، وقد اضاع عددا منها ولكنه جاد في البحث عنها .

(٨) ـ يقوم البحث الحالي على تصور معين لتطور القصة العربية في سورية حتى سنة ١٩٦٧ من خلال المراحل التالية : الاولى ١٩٣٠ ـ ١٩٤٩ ، الثانية ١٩٥٠ ـ ١٩٥٨ ، الثالثة ١٩٥٩ ـ ١٩٦٧ ، ومع ان هذا التصور قد لا يكون شديد الصلة بصلب البحث الحالي فان الاشارة اليه قد لا تخلو من فائدة في الربط بين التطور العام للقصة السورية وتطور معالجتها للموضوع الفلسطيني . للتفصيل يمكن مراجعة : الخطيب ، د. حسام : سبل المؤثرات الاجنبية واشكالها في القصة السورية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

الموضوع الفلسطيني في القصة السورية

تابع المنشور على الصفحة ١٦

يستوي على قدميه توجه على الفور نحو الموضوع الفلسطيني واولاه قسطا من الاهتمام غير يسير كما سوف نرى بعد قليل .

النكبة وما بعدها

انتهت احداث عام ١٩٤٨ بنهاية مأساوية صدمت العقل العربي والمجتمع العربي في الصميم وخلفت في النفس العربية جرحا لم يتح له عمق الصدمة وتتابع الحوادث ان يندمل حتى بعد مضي حوالي ثلاثة عقود من السنين. ومن هنا كان المرء يتوقع أن يكون لهذا الجرح العميق انعكاسات صارخة في الادب العربي ولا سيما في ادب قطر عربي مثل سورية كان دائما في مواجهة الصدام وظلت عاطفته القومية دائما في الاوج . وفعلا ، وبصرف النظر عن تفاوت القيمة الفكرية والفنية ، اقبل عشرات الادباء العرب السوريين على رثاء فلسطين الزائلة ومعالجة النواحي المختلفة للقضية الفلسطينية ، ويظهر جليا من استعراض النتاج الادبي في سورية بين نكبة عام ١٩٤٨ ونكسة عام ١٩٦٧ أن النوعين الادبيين اللذين حملا العبء الكبير هما الشعر والقصة القصيرة . ويبدو هذا الامر طبيعيا وغير مخالف لما هو متوقع . فالشعر كان ، وما زال ، ديوان العرب وهو الملاذ الذي يلوذ به الناس عند الملمات وعند الافراح الكبرى كذلك . أما القصة القصيرة فقد كان من الطبيعي أن يقع اختيار الكتاب عليها باعتبارها نوعا ادبيا مطواعا قادرا على نقل انفعالاتهم السريعة وأشجانهم المتلاحقة التي كانت تثيرها تطورات المأساة الفلسطينية . حتى لكأن كتاب النثر ارادوا لها ان تحمل من التوتر والشجن ورهافة الاحساس ما حمله زملاؤهم للشعر . وقد استطاع هؤلاء الكتاب بالدرجة الاولى أن يحملوا قصصهم مختلف الجوانب العاطفية التي نجمت عن التأثر بالمأساة ، مضافا الى ذلك بطبيعة الحال بعض النواحي السياسية ، فمثلا سجل قدري قلعجي المشاهد المؤثرة للخروج الفلسطيني وذلك في مجموعته الوحيدة « يحدثونك من القلب » (٩) وصور بديع حقي في قصصه المتعاقبة منذ الخمسينات ثنائية الحياة الفلسطينية بعد النكبة : الحنين الى الارض، والتشتت ، كما يتضح جليا في مجموعته « التراب الحزين » (١٠) ، وكتب الدكتور عبد السلام العجيلي عن تجربته السياسية في حرب عام ١٩٤٨ التي شارك فيها بعض الوقت ، وظهرت بعض قصصه الفلسطينية في مجموعة « الحب والنفس » (١١) ، واديب النحوي شارك بعاطفته المضطرمة وبالتزامه القومي في رصد بعض جوانب النكبة وذلك منذ ان اصدر مجموعته القصصية الاولى « من دم القلب » ، عام ١٩٤٩ . وكذلك كان لسائر كتاب القصة السورية اسهام يكثر او يقل ، يبدع او يحط على السفوح ، في معالجة الموضوع الفلسطيني في القصة ، ولا بد ان يذكر مع هؤلاء : فارس زرزور ، ياسين رفاعية، شوقي بغدادي ، خليل هنداوي ، فاضل السباعي ، غادة السمان ، وداد سكاكيني ، ممن لهم باع طويل في كتابة القصة القصيرة ، وكذلك يمكن ذكر كتاب آخرين ممن لم يظهروا استمرارية في كتابة القصة ، وذلك مثل نزار المؤيد العظم ، عبد الهادي البكار ، برهان شريح ، منير الشعار ، الخ ...

والملاحظ ان الجيل الجديد اخذ يغني الموضوع الفلسطيني ، منذ اواخر الخمسينات ، بما اظهره من ميل الى الايجابية والتحليل السياسي والتساؤل والاحتجاج والتعمق في لب المسألة ، محاولا بذلك أن يعطي النكبة معنى مختلفا عما كان سائدا آنذاك . ويمكن اعتبار انتاج مطاع صفدي ممثلا لهذا الاتجاه ، لا في القصة القصيرة فحسب « اشباح ابطال (١٢) ، بل في الرواية المطولة أيضا «جيل القدر» (١٣). كما تلفت النظر في هذا الصدد بعض بواكير انتاج هاني الراهب ، الذي ينتمي الى الجيل الاحدث سنا .

وبوجه عام يمكن تلمس ملامح خط تطوري مستمر للموضوع الفلسطيني في القصة السورية ، ففي البدء كان الكتاب مشغولين بلب النكبة أي بالهزيمة نفسها وبما ترتب عليها من معاناة الشعب العربي الفلسطيني وآلامه وتشتته وتشرده ، وكان طبيعيا أن يفرض التركيز على هذه الناحية جوا من التشاؤم والحزن والندب ، ولكن هذا الموقف العاطفي الرثائي المحض سرعان ما قاد الكتاب الى تساؤلات عقلية اختلطت بالموقف العاطفي وتمخضت عن اجوبة انطباعية تناولت اطار المأساة بالاضافة الى لبها وقطت مؤشرات غير متبلورة باتجاه الموقف السياسي العربي الرسمي . ولم يلبث أن انضم بالتدريج الى موكب كتاب القصة شباب ناشئون تغذوا من التربية السياسية للحركات الثورية التي فجرتها النكبة اصلا واستفادوا من التطور الذي بلغه الوعي السياسي في الوطن العربي ولا سيما في القطر العربي السوري، واخذوا يطرقون الموضوع الفلسطيني وقد تحولت عندهم العاطفة الى نقمة على مسببي النكبة ، والاشفاق الى تحريض على الثورة والتمرد، والغمز الى كشف وفضح وتعرية . على أنه في جميع الحالات وفي مختلف المراحل اظهر الكتاب العرب السوريون ميلا شديدا الى الاشادة ببطولات المناضلين ، سواء أكانوا من ابناء فلسطين أم من مقاتلي الجيش العربي السوري الذي استمرت اشتباكاته مع العدو متصلة حينا متقطعة حينا آخر ، كما اتفقوا جميعا على ابراز القيم الخلقية العربية في القتال مقابل التنديد بنذالة العدو ووحشيته وتدني قيمه، ويعتبر انتاج فارس زرزور أقوى معبر عن هذا الاتجاه .

لب المأساة عند كاتبين رائدين

١ ـ قدري العمر وحديث القلب للقلب :

وعلى أي حال تظل مجموعة (يحدثونك من القلب) المجموعة الوحيدة التي تتركز كليا حول الموضوع الفلسطيني حتى سنة ١٩٦٧ على الاقل ، وتتمثل فيها السمات الاساسية للموقف الفكري الفني الذي اتخذه الجيل القديم من موضوع النكبة الفلسطينية خلال عقد من السنين بعد النكبة (حتى نهاية الخمسينات أو ما يمكن تسميته المرحلة الثانية من تطور القصة السورية) . وتدور قصص المجموعة حول (الخروج الفلسطيني) ، ومن خلال هذا الموضوع تقدم لنا القصص جوانب مختلفة من النكبة اهمها تشرد الفلسطينيين ومعاناتهم ، وكفاحهم في سبيل الحياة ، ومغامرات العودة والخروج ، وبطولات الكفاح ضد العدو الصهيوني ، واخيرا وحشية اليهود وتنكيلهم بالمدنيين الابرياء . وتجري الاحداث في مدن فلسطينية مختلفة مثل اللد والرملة وعكا وحيفا وصفد . ويطرق الكاتب احيانا زوايا خاصة غير منظورة من النكبة مثل معاناة الطلبة الفلسطينيين في أوروبا حلت النكبة ، اذ يعالج الكاتب في قصته « كنت طالبا في جامعة لندن » مشكلة طالب فلسطيني في لندن انقطعت عنه اخبار اهله أثناء حوادث عام ١٩٤٨ كما انقطعت عنه الموارد المالية فوقع فريسة الغربة والحسرة واللوعة من جهة وفريسة الفاقة والجوع الحقيقي من جهة اخرى . وفي هيكل القصة الذي يقدمه الكاتب امكانات غنية نفسية وسياسية وفنية، ولكن الكاتب لا يوفق في توظيف هذه الامكانات وتبقى قصته في حدود المادة الخام غير المصنعة فنيا .

والحق أن الكاتب يلتفت الى اكثر من زاوية خاصة من زوايا الموضوع الفلسطيني يمر بها مر الكرام دون أن يقدر قيمتها الفنية ، وهذه الظاهرة تكاد تكون مشتركة في ادب الرواد . وتبدو القصص

---

(٩) نشرت عام ١٩٦٢ ولكن القصص تعود الى فترة اسبق بكثير .

(١٠) نشرت عام ١٩٦٠ ، وتعود معظم قصصها الى اواسط الخمسينات .

(١١) نشرت عام ١٩٥٩، ويعود معظم قصصها الى اواسط الخمسينات

(١٢) بيروت ، ١٩٥٩ .

(١٣) بيروت ، ١٩٦٠ .

خالية من اية هدفية سياسية او اخلاقية متمسكة ، وحتى من الدرس العام الوطني والانساني الذي يمكن ان يكون المؤلف قد رمى اليه لا يستمر على مستوى واحد في جميع القصص بل يضطرب احيانا ويتناقض وقد يحمل توجيها معاكسا للموقف الوطني المنتظر . ويرجع ذلك بالطبع الى الفقر الشديد في الرؤية السياسية والاتكاء المسرف على الجانب العاطفي من النكبة . وفي قصة « وصلت الى دمشق » مثلا يعاني افراد الاسرة مرارة الخروج والتشتت ، وتنتهي القصة بمشهد الاسرة وقد التأم شملها في بيت شامي عتيق في أعلى قاسيون واطمأن بها المقام حتى ان الزوجة تقول :

« يا لها سعادة لو تدوم » (ص ١٠٢)

مع ان الظرف ظرف نكبة وتشرد . وبالطبع كان في مقدور الكاتب بشيء من العناية الفنية أن يستغل هذا الموقف للايحاء بالمفارقة المرة في موقف أسرة لاجئة تعتبر اللجوء (سعادة لو تدوم) ، ولكن الكاتب قدم المادة الخام دون اي صقل .

بل هناك ما هو أخطر من ذلك . في بعض القصص تأكيد على ان (الخروج) هو الحل السليم والنهاية المنشودة ، كأنما كان الكاتب مشغولا بالجانب الانساني العاطفي الى درجة أنسته الدرس الوطني . وتقدم لنا بعض القصص شبانا فلسطينيين تطيح بهم أحداث النكبة الى خارج المنطقة المحتلة ولكنهم ينجحون بعد معاناة الاهوال في اجتياز الحدود وينضمون الى اهلهم في فلسطين . الا أن صعوبات الحياة في الارض المحتلة تصدعهم فينطوون على أنفسهم يائسين مستسلمين ، ثم يقررون الهجرة الى البلاد العربية . هكذا تنتهي احدى القصص التي تدور احداثها في حيفا :

(وبعد ثلاثة ايام ، كانت الاسرة على سفرة الفطور في الصباح ، وكانت الاذاعة تذيع ، وكانوا يسمعون لها صامتين ... فاذا بين اخبارها رسالة من احمد تقول :

انا الان في دمشق ، صحتي جيدة ، أخبروني عن صحتكم .

وما انتهى الخبر حتى ترامى الابوان على حسن يقبلانه ، ويقولان بصوت واحد :

ـ الان تمت الفرحة يا حسن .

حسن : نعم . وسنتلقى جميعا في دمشق .)

وبالطبع ، قد يكون هذا الكلام صحيحا من زاوية تجربة أسرة معينة علم بها الكاتب . ولكن أين دور الاديب في التصفية الفكرية والفنية ؟ ان الكاتب يؤكد في مقدمة المجموعة أنه سمع القصص من افواه ابطالها وبذل جهدا فائقا ليوائم بين الفن والحقيقة ، وكان بفضل التضحية بالفن في سبيل الحقيقة وامانة الرواية .ولكن مشكلة التضحية بالتصفية الفنية انها تصبح تضحية بكل شيء .

لقد فهم الكاتب في جميع القصص أن دور (المنقذ) الذي كان على الاقطار العربية أن تقوم به تجاه فلسطين هو دور (احتضان) اللاجئين الفلسطينيين وتسهيل سبل الخروج لهم . وقد قدم لنا اقطار الهجرة على انها سدرة المنتهى وجنات عدن . وكان التركيز واضحا على سوريا بوصفها ملاذ اللاجئين وأمهم الحنون ، وفي معظم القصص يتعذب الابطال ويعانون الامرين ولكنهم حين يصلون الى الارض السورية يجدون العناية والعمل والترحيب ويطمئن بهم المقام . ولعله من خلال هذه الزاوية انتقد مثلا معاملة اللبنانيين للاجئين الفلسطينيين في قصة (الرجوع الى عكا) مثلا .

وبوجه عام تحمل مجموعة (يحدثونك من القلب) نفسا انسانيا ووطنيا نبيلا ، وتنجح في لفت النظر الى زوايا حساسة من النكبة الفلسطينية ، كما تتعمد التركيز على جوانب المعاناة الفلسطينية ، وربما تبلغ اوجها في قصة (دير ياسين) التي تصف فظائع اليهود وغدرهم بواقعية صارخة . ولكن هذه القصص بوجه عام تفتقر الى رؤية سياسية سليمة ، ولعلها بذلك تعكس الموقف الشعبي العام من النكبة حتى نهاية الخمسينات .

ومن الناحية الفنية يمكن القول ان الحد الادنى من الصياغة الفنية لم يتوافر للقصص ، وأتت (يحدثونك من القلب) مجموعة من الحكايات التي لم تشذبها يد الفن ، وهي نوع من تاريخ الافراد موضوع في قالب قصة ، حرم نفسه من فنية القصة ومن دقة التاريخ ، ولكنه مع ذلك ظل محتفظا بحد أدنى من الاثارة والتشويق والاقناع النفسي بفضل طريقة السرد العفوية الصادقة . وقد حرص الكاتب على الامانة في الرواية الى أبعد حد وكان يذكر الاسماء والاماكن والتواريخ أحيانا . وساعده على اعطاء انطباع العفوية والصدق لغته الجميلة المعبرة التي كانت ترق احيانا حتى تقترب من مرونة الاسلوب المناسب للسرد القصصي ، ولكن تربية الكاتب الاسلوبية التقليدية كانت تطغى عليه في أحيان اخرى فيأتي أسلوبه مثقلا بالعبارات الجاهزة وبعض المفردات الغريبة ، واحيانا تعترض الاسلوب ملاحظات استطرادية باردة سخيفة لا تعدو أن تكون حشوا أريد به عرض ثقافة الكاتب اللغوية ، ويفطن الكاتب الى هذا الامر فيحاول أن ينفي عن نفسه التهمة وذلك بربط الاستطراد بهدفه الظاهري في القصة ، تماما مثلما كان يفعل المتنبي في تصنعه للثقافات الاجنبية واللغوية . ففي قصة (عرس بطل) مثلا يدور حوار بين (فهد) بطل القصة وبين استاذ القرية ، ويستشهد الاستاذ ببيت ابن دريد :

الناس الف منهم كواحد وواحد كالالف ان امر عنى

ويستمر الحوار على هذا النحو :

« قال فهد : لمن هذا البيت ؟

قال الاستاذ : لابن دريد .

قال فهد : ومن هو ابن دريد ؟

الاستاذ : هو صاحب كتاب الجمهرة،وصاحب المقصورة المشهورة.

فهد : ما الام الاستعمار . سلط علينا الصهاينة ياخذون دارنا ويحاربوننا في بلدنا ، وحجبنا عن العلم وعن ادبنا وتاريخنا » . ص ٥٨

وبوجه عام كان نفس الكاتب تقليديا ، وتظهر مغامرته مع فن القصة القصيرة العناء الذي كان يلاقيه كتاب الجيل القديم في عملية تطويع لغتهم واساليب تعبيرهم للتلاؤم مع الفنون الحديثة . وقد كان عند قدري العمر من رهافة الحس وصدق العاطفة ونبل المقصد ما كفل لقصصه ان تظل شاهدا على مرحلة مهمة من مراحل وعي فن القصة العربي لموضوع من اخطر الموضوعات التي عالجها خلال نصف القرن الماضي .

٢ ـ بديع حقي وثنائية الحنين والتشرد :

لم يصغ احد من نكبة الفلسطينيين بيانا ابلغ واصدق واندى واكثر صميمية واوقع في النفس واشد تأثيرا من بيان الدكتور بديع حقي في القصص القصيرة المعدودة التي نشرها في الخمسينات (١٤) . وان المرء ـ مهما حاول ان يسلح نفسه ضد تأثير الاسلوبية ـ لا يستطيع ان يكون في موقف قوة ازاء السحر الحلال الذي تحمله عبارات بديع حقي الملهمة المضخمة بدماء الضحايا ودموع المنكودين . ومهما يكن من امر تغير الذوق الفني او تطور الوعي السياسي فان المرء يشعر احيانا ان هذه التغيرات لا تنال من الطاقة التأثيرية لكلمات بديع حقي ، على الرغم من أن هذه الكلمات كثيرا ما تنحو منحى ميلودراميا وكثيرا ما تؤثر الجلجلة والعويل على النغمة الشجية والأنة الحبيسة . وليس السر ـ كما يخيل لآخرين ـ يكمن في شيء واحد هو أن بديعا وضع يده على الجرح ، وبالضبط على قلبه ومكمنه حيث تتفجر العروق دما فوارا ومعنى انسانيا يتجاوز لغات العالم وكل ما اوتيته من بيان .

---

(١٤) انظر بعض هذه القصص في مجموعته (التراب الحزين) دمشق ، ط ٢ ، ١٩٦١ .

تحدث بديع عن ثنائية الحياة الفلسطينية بعد النكبة : الحنين الى شجر البرتقال والاكتواء بعذاب التشرد . وهل هناك شيء سوى هذه الثنائية في الصفحة التي تلت فصل النكبة في مجلد المعاناة الفلسطينية المعاصرة ؟ في (التراب الحزين) يعيش (حسين) الفلسطيني الصغير مع اسرته في بلدته (قلقيلية) (١٥) ، ولكن في حي اللجوء وفي مسكن الذل والفقر . منزل الاسرة على بعد خطوات منها وبرتقالها كذلك وقلوب افرادها كذلك . وليس تنفعها قربى الدار، بل يزيدها تسريح النظر في الملك انضائع بؤسا وكمدا ويبقي المأساة حية حارة ومصبحة ممسية . وكما يفعل كل ابناء قلقيلية ـ اللجوء ، ابرم في نفسه امرا وتسلل في الظلام الى بيارات ابيه وجده ، لا ليضع الغاما ولا ليبيد ابرياء بل ليقطف برتقالات معدودات يأمل أن يصنع منها عصيرا يشفي اخته المريضة . ويقطف البرتقال ويملأ صدره به وتتراءى له صور « كأس العصير تهتز في يد اخته ، وهي تنهل منها » . وتتهلل ابتسامة هنيئة على شفتيه . ولكن :

« انه لا يدري كيف يفارق هذه الشجرة ، شجرته الحبيبة ، واغصانها لا تزال مثقلة بالبرتقال ، واجتاحت الحسرة قلبه ، وهو يرى نفسه مضطرا الى الاكتفاء بما قطف » .

واخيرا ينتزع نفسه من تردده ، ولكن بعد فوات الاوان . ان عدو الحياة يقف له بالمرصاد، ويركض وتركض وراءه رصاصات الشر. وتومض امامه صورة اخته المريضة وامه العاتبة ، ويسقط دون حراك ، وتتناثر البرتقالات وتتحرك ، ولكن الى حين .

« كانت اشعة الشمس ، عند الصباح ، اول من قبل وجهه ، وهو ملقى على الارض ، دون حياه . والى جانبه جثث برتقالات تافهة وقد تلوثت احداها بالدم ، وكانت برتقالة صريعه ، نفذت في قلبها رصاصة وسال عصيرها الشهي ، فعانق دما نديا احمر ، ثم انساب على التراب الحزين » .

ان الناقد المتخذ هيئة النجد يستطيع ان يجد في (التراب الحزين) عشرات العيوب ، وقد يتساءل عن التحليل وعن المعنى السياسي وعن المغزى ، وقد يجد خرقا لمبادىء الفن القصصي في المطلع وفي النهاية وفي التألق الاسلوبي ، ولكن من يعرف ماذا يعني البرتقال عند صبي فلسطيني محروم ، وماذا يعني سلخ قلقيلية عن بساتينها بخط من الشريط السميك شاركت في رسمه على الخريطة يد صهيونية واخرى غير صهيونية الهيئة ـ ان من يعرف ذلك ـ ومن يستطيع أن يتخيله كذلك ، لا يمكن ان يكون امام بديع حقي سوى قارىء يغالب دمعته بالكاد .

الثنائية الاولى اذن هي الحنين الى البرتقال . والثانية هي الاكتواء بعذاب الخيمة ، وكلاهما اكتواء على اي حال . والخيمة عند بديع حقي مخلوق حساس ناطق . لقد ولدت عشية المولد الرسمي للنكبة واتيح لها بعض الفراغ وبعض العزم لان تكتب مذكراتها منذ ١٦ ـ ٥ ـ ١٩٤٨ حتى ٣١ ـ ١ ـ ١٩٤٩ . وانها لتتألم كثيرا لمصير هؤلاء المعذبين اللاجئين الى ظلها غير الظليل وصدرها غير الدفيء . وما الذي يمكن ان ترثيه من احوالهم ؟ انها لتحار بين البكاء على مصيرهم والتوجع على حاضرهم والاشفاق على ما يعانونه من جوع ومرض وعطش وذل وحرمان . وانها لتهم بان تشعرهم بشيء من الطمأنينة واذا بالريح تهب لتفسد عليها كل ما حاولته ،وتجعل من كل ذرة معاناة عندهم ضعفا او اكثر ، واذا تلكات الريح او نسيت او صرفها شاغل ما ، كان رصاص اليهود جاهزا لان يقوم بدوره كجزء من مظاهر الطبيعة القاسية . وان الخيام تبحث بعضها بعضا ويشعر بعضها مع بعض وذلك بعد ان صهرت المعاناة ما يكون عادة من جمود بين الجمادات .

هي ذى مذكرات الخيمة في ١٥ ـ ١ ـ ١٩٤٩ .

اليوم ، كان يوما حزينا اسود في عمر جارتي الخيمة العجوز ، فقد ماتت الفتاة الصغيرة فجأة ، كبرعم صغير اخضر ، غدر به البرد فذوى قبل ان يتفتح .

وقالت لي الخيمة العجوز ، وعينها تشرق بالدمع ، ان الصغيرة كانت مسلولة ، واضافت الي بان آمالها في الحياة سوف تنبت قريبا مع حبالها الواهنة .

وشق الفضاء عويل الام الثكلى ، وخفت الارملة اليها تواسيها وتشاركها في البكاء ،وتحامل فتاي الصغير، بخطاه المتعثرة المتزايلة ، وتناهى الى سمعي سعاله اليابس ، وتسلل القلق الى قلبي .

ووقف الفتى امام باب خيمة جارتي ، وكان ظله المنسكب على الارض طويلا يكاد يلامسني ، ومددت شفتي فقبلت ظله ، وعرفت انه ينشج ، فقد كان ظله يهتز ويترنح .

لن يلعب معها بعد الآن ، امامي ، لن يثرثر معها ، لن يطلق ضحكته النقية ويمحو عن كاهلي غبار العناء .

ورأيته يقترب من امها ، يواسيها ، بلغته الساذجة الدافئة ، ولمحته يرامق الصغيرة المسجاة على ارض الخيمة ، ويقول لها معاتبا :

ـ كيف تغادريننا وتتركين ملاعبنا ونزهاتنا واحلامنا المشتركة ؟ (١٦)

لقد انطق بديع حقي كلا من الخيمة والبرتقال بكلام مؤثر ، لانه بالدرجة الاولى مستقى بصدق من قلب واقع المعاناة الفلسطينية ، واستطاع ان يسهم في رسم اللوحة الاساسية للموضوع الفلسطيني ، وحاول جاهدا أن يوفر لهذه اللوحة الوانها الخارجية وهي البؤس والجوع والعوز والمرض والبرد والعري ، كما انه لم يقصر في رسم خطوطها الداخلية من ذل وحرمان وخوف وقلق من جهة ، وحنين وشوق وصبر وتشبث بالتراب من جهة اخرى . وكانت المأساة عنده عاصفة صارخة ، فملكت عليه كل حواسه ، ولم تمكنه من تجاوز الدوامة الى ما وراءها ، واقنع نفسه بان يقطف قطفة او قطفتين من زخمها وكفى ، ولقد كان في هذا الزخم من الغنى العاطفي وحده ما هو كفيل بان يشغل حياة ادبية كاملة ، وكان وراء هذا الزخم من المعاني القومية والانسانية ما هو كفيل بان يشغل جيلا كاملا من الحيوات الادبية . ومن اسف ان كاتبا مثل بديع حقي قنع بالعاطفة وحدها ـ على نبلها ، وبالنظرة التقليدية ـ على وجاهتها ، وبلوحة الصدارة على اهميتها ، ورضي ان يترك للجيل الاحدث سنا ما كان يستطيع ان يفعله هو بشيء من التجاوز لمنطق محيطه ومرحلته .

اطار المأساة عند الجيل المتوسط

في حين يشير قدري العمر الى سورية والاقطار العربية المجاورة باعتبارها ملاذا للاجئين ، ولا يتحدث الا قليلا عن البعد العربي للقضية الفلسطينية ، فان الدكتور عبد السلام العجيلي (١٧) ، في القصص القليلة التي كتبها عن تجربة الحرب الفلسطينية التي شارك فيها متطوعا ، يطرق موضوعا شديد الاهمية وهو التفاعل بين الاطار العربي ولا سيما في سورية وبين مادة النكبة . وفي قصته الجميلة « اينما كان » يروي لنا جانبا من تجربة المتطوعين العرب السوريين اثناء الحرب الفلسطينية . وتدور القصة حول زعيم قروي محلي بسيط يستقبل المتطوعين ويقدم لهم كل ما يستطيعه من مشورة وعون ويضع ابناءه الستة في خدمة المعركة ولكنه مؤمن في صميمه :

---

(١٥) جعل خط الهدنة لعام ١٩٤٩ من قلقيلية (برلين) فلسطين المشطورة ، ولكن بين اهلها وغاصبيها لا بين المانها والمانها . ومع ذلك ينسى الناس ، ويتحدثون ـ كما تحدث كاتب هذه السطور عن العاطفية والميلودراما . لقد كان القطار اليهودي يعبر من جانب نوافذ مدرسة قلقيلية وحين ينجلي دخانه كان الاطفال يجددون رؤيتهم لبرتقالهم الذي تقطفه الايدي نفسها التي قتلت آباءهم .

(١٦) التراب الحزين ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩

(١٧) ولد سنة ١٩١٧

« ان الانكليز خنازير وان اليهود كلاب جبناء ما استطاعوا يوما ان يدوسوا ارضه وان يستطيعوه ما دام في عروقه دم وفي صدور ابنائه وابناء ابنائه انفاس تتردد .. » (١٨) .

ولكن اليهود يتغلبون على العرب ويجد الشيخ الفلسطيني نفسه لاجئا في دمشق ومتسكعا ذليلا على ابواب رئيس الاركان في دمشق يطلب مقابلته دون جدوى ، وهو الذي عرفه في بلدته الصغيرة وشد من ازره حين كاد زمام الامور يفلت منه لدى سماعه نذير المعركة . ويكشف لنا الكاتب عن مسالة غريبة هي ان الشيخ بطل القصة كان ينشد شيئا واحدا من رئيس الاركان ، وهو ان تعاد الى ابنائه الستة بنادقهم التي صادرها الجنود لكي يمنعوهم من التسلل الى الاراضي التي يحتلها اليهود .

وتتطرق هذه القصة الى البحث في جوانب كثيرة من العلاقة العربية الفلسطينية ـ ان صح التعبير ، وتستخدم اللهجة التقريرية المباشرة ولذلك يستطيع الانسان أن يستقي منها استنتاجات واضحة :

١ ـ تؤكد القصد على التشبث الفلسطيني بالارض ، والايمان بضرورة الاعتماد على النفس ، والاستعداد لمجابهة العدو والتضحية بالغالي والرخيص ، وتشدد بوجه خاص على الفضائل العربية في القرية الفلسطينية .

٢ ـ تكشف عن النقص المعنوي الكبير في صفوف المتطوعين العرب في حرب عام ١٩٤٨ . وهي تظهر ان الكثيرين منهم ـ ولا سيما الزعماء ـ اتوا لغرض المتاجرة بالقضية وانهم فيما بعد استغلوها ابشع استغلال وانهم انتهوا الى منع الفلسطينيين من ممارسة حقهم الطبيعي في النضال ، كما ترمز عملية مصادرة بنادق ابناء الشيخ الفلسطيني . ثم ان بعض هؤلاء المتطوعين كانوا عاجزين عن فهم الشعب العربي الفلسطيني بل عن التعاطف معه ، وفيهم من كان يتهجم عليه . لقد كان الشيخ يخشى ان يتحدث مع احد سوى مع راوي القصة ـ الذي هو على الارجح الدكتور عبد السلام العجيلي نفسه . ويعلق الراوي على حديث الشيخ عن استعداده للدفاع عن قريته :

« لو قال لرئيس جماعة المجاهدين ولاصحابي ما كان يقوله لي لما لقي الا ابتسامة الاستهزاء ، اذا لم تصله من حمقيهم او بعض سفهائهم شتيمة تلحقه بكل هؤلاء الذين اتينا نفديهم بارواحنا فلقينا منهم الضيق والعقوق والجحود ، ولقينا منهم احيانا الخذلان والتواطؤ والخيانة » ـ ص ٤٩ .

٣ ـ تكشف القصة كذلك عن نقص كبير في الكفاءة القتالية للمتطوعين وفي اسلحتهم وعتادهم . وقد اظهرت ارتباك رئيسهم بوجه خاص (١٩) حين حزب الامر وظهرت بوادر المعركة . ويحرص الدكتور العجيلي على اعطاء تفصيلات عن انواع السلاح المحدود الذي كان يعطى للمتطوعين .

وتتبلور آراء عبد السلام العجيلي بشكل اقوى في قصته الاخرى (كفن حمود) وهي من مجموعة (الحب والنفس) أيضا . وتتحدث هذه القصة عن تجربة ابنة الشعب (عمتي نجمه) مع قضية فلسطين. لقد اصبحت قضية فلسطين الان قضية سورية ، اذ استشهد ابنها حمود في فلسطين ، وهي تريد استرجاع عظامه وتشتري قماشا معينا من الحج لكي تلف به جثته . وهي تمثل الايمان الشعبي الغامض بامكان تحرير فلسطين في المستقبل ، ومن خلال مشاعر العمة نجمة تطرح القصة الافكار التالية :

١ ـ فلسطين طريق مسدود لا بد من ان يفتح يوما ما ، ولكن اي جيل ذاك الذي سيتولى المهمة الصعبة .

٢ ـ « فشل القادة ، ويئس الساسة ،وتآمر الزعماء ، ونبطت همم المتحمسين ، ونفض كثير من الناس ايديهم من الارض المسلوبة . ولكن عمتي نجمة ، رمز الشعب ، لم تفقد ايمانا ولا اضاعت ثقة » ـ ص ٦٨ .

٣ ـ كانت الحكومات المتعاقبة تجمع السلاح والتبرعات باسم فلسطين ، ولكن كان واضحا ان لا شيء من ذلك يذهب الى فلسطين.

٤ ـ يعاني جيل (الراوي ـ المؤلف) معاناة شديدة من عار الهزيمة ، والوطنيون من ابناء هذا الجيل يخجلون من مجابهة الشعب، اما الانتهازيون فيستغلون القضية الفلسطينية بوقاحة .

٥ ـ اخيرا يتساءل الراوي ـ المؤلف بحرقة :

« من ذا الذي سيحمل كفن حمود ؟

جيل آثم يريد ان يشتري خطيئته ويكفر عن عاره ، وجيل يريد ان يلقي نفسه في النار ولا يدري انها تحرق . وجيل ينهيا ليكون كفؤا للسهم الذي اعد له . واجيال لا تزال في باطن الغيب .

من ذا الذي يحمل منهم كفن حمود اليه .؟ تساؤل ذاد المنام عن الاعين بعد ان هجعت عين عمتي نجمة .» ص ٧٣ .

واذا كان قدري العمر يمثل راي الجيل الاسن فان عبدالسلام العجيلي يمثل هنا راي الجيل الوسط الذي وعى النكبة جيدا وبدا حائرا مصدوما ناقما ازاء ما يراه من تخاذل واستغلال للقضية وخيانة لها . ولكنه ظل ضمن حدود الحيرة ولا يوحي بأي افق جديد ، وان كان يؤكد نوعا من الايمان الغيبي بمجيء الحل ـ ربما بعد اجيال .

وتمثل قصتا عبدالسلام العجيلي السابقتان قفزة فنية بالنسبة لقصص قدري العمر ، ولكنهما تبدوان اقل اتقانا بكثير من القصص الاخرى التي نشرها العجيلي في تلك المرحلة . وعلى الرغم من الاعجاب الواسع الذي حظيت به هاتان القصتان ابان نشرهما فان المرء يستطيع أن يلمح ان الجراة النسبية في المعالجة المضمونية والرصيد الكبير لكاتبهما اديا الى اغفال النقاد المعجبين في ذلك الحين للصدوع الفنية الواضحة في القصتين . وان المرء ليتساءل : هل يكون الموضوع الفلسطيني هنا مسؤولا عن طبيعة البناء القصصي غير المتماسك الذي اختير لهاتين القصتين ؟ يكاد المرء يقول ان تاثير الموضوع الفلسطيني كان غالبا باتجاه التشديد على حرارة المعالجة مقابل التساهل في القالب الشكلي ، على الاقل حتى نهاية الستينات.

ملامح تجربة المأساة عند الجيل الجديد

تطور في معالجة الموضوع وفي المستوى الفني :

يستطيع الانسان ان يقول بكل اطمئنان ان معالجة الموضوع الفلسطيني عند الجيل الجديد في مطلع الخمسينات اظهرت تطورا واضحا نحو الافضل سواء فيما يتصل بالمضمون وقوة التحليل او فيما يتصل بالشكل والبنية القصصية . وبالطبع يجب ان يؤخذ هذا التطور بمعناه النسبي ، وليس يعني تفضيل انتاج الشبان على الجيل السابق لهم انهم وفوا الموضوع الفلسطيني حقه ، ذلك ان هناك جملة من العوامل السياسية والفنية حالت دون انتاج ادب قصصي رفيع مستوحى من غنى الموضوع الفلسطيني وتعدد جوانبه . وبصدد العوامل السياسية يمكن الاشارة الى التخلف السياسي الذي كان يسود الاقطار العربية المجاورة لفلسطين ابان نكبة فلسطين وخلال السنوات التي تلتها بحيث كانت التحليلات السياسية والثقافية السياسية عامة محصورة في نخبة محدودة جدا . وكانت الطبقات الحاكمة تعمل على استخدام مختلف اساليب التضليل والتشويش والديماغوجية والتلاعب بالعواطف وحجب المعلومات والاضطهاد والارهاب لابعاد الراي العام عن معرفة طبيعة النكبة ومسبباتها ونتائجها الخطيرة .. وفي اوائل

---

(١٨) من مجموعته « الحب والنفس » ، بيروت ، ١٩٥٩

(١٩) وهو غالبا اديب الشيشكلي الذي اصبح فيما بعد رئيسا للاركان ثم رئيسا للجمهورية في دمشق .

الخمسينات كان يبدو ان الكتاب الشباب يحسون بكل ذلك ولكنه الاحساس العام المفتقر الى التحليل النوعي ، وبالتدريج تطور هذا الاحساس الى وعي ومحاولة للتعمق ورغبة في الربط والتعليل . وقد قطع كتاب القصة الشباب شوطا في هذا المجال ولكنهم لم يستطيعوا تجاوز التعميمات السياسية للمرحلة ، بحيث لا نستطيع ان ننسب اليهم من عناصر الوعي السياسي ما ينفردون به عن غيرهم من ابناء الفنون الاخرى او من كتاب الادبيات السياسية .

ولم يستطع المستوى الفني للقصص ، بما يجب ان يوفره عادة من الجاذبية وقوة التأثير ان يعوض عن النقص الذي كانت تعاني منه القصص في العمق والرؤية ، وظهر عجز واضح عن استثمار الامكانات العظيمة التي يزخر بها الفن القصصي من اجل ارتياد الجوانب القومية والانسانية الخاصة في الموضوع الفلسطيني وتحويلها من مادة خام الى اشكال فنية مصقولة وقائمة بذاتها . ويرجع ذلك بالدرجة الاولى الى ان فن القصة في الخمسينات كان بعد فتيا لم يستكمل اسباب النضج ولم تسبقه من التجربة الموروثة سوى مرحلة قصيرة متقطعة من المحاولة والخطأ في العقدين اللذين سبقا الخمسينات على وجه التحديد . وبالطبع لا يطلب المرء المستحيل من كتاب اية فترة من الفترات ، فالانتاج الفني ظاهرة اجتماعية مرهونة بظروفها العامة ، ولكن هذا الموقف الاعتذاري لا يجب ان يوصلنا الى الاعتقاد بانه (ليس بالامكان ابدع مما كان) . واقل ما يمكن ان يؤخذ على قصص المرحلة عامة انها اتكأت على سمو الموضوع المطروح واطمأنت له ومالت في معظمها الى التساهل في القيم الفنية ، وان عشرات القصص الوطنية العابرة التي نشرت في مجلات مثل (الجندي) و (الشرطة والامن العام) و (الدنيا) في الخمسينات تقف شاهدة على هذا الحكم . بل ان المرء يكاد ان يذهب الى ابعد من ذلك ليستنتج — ولو على حذر — ان عددا من الكتاب الذين كانوا معروفين بحرصهم النسبي على توفير مستوى فني لائق لانتاجهم لم يظهروا مثل هذا الحرص فيما نشروه من قصص وطنية وفلسطينية في المجلات المذكورة ومثيلاتها ، ويقينا كان هؤلاء الكتاب يعرفون انهم يلبون حاجات ملحة، ولذلك لم تظهر اكثر هذه القصص في المجموعات التي نشروها فيما بعد ، ومن بين هؤلاء — على سبيل المثال — كتاب مثل سعيد حورانية وشوقي بغدادي ومحمد حيدر .

على ان الاشارة الى هذا الواقع يجب ان لا تحجب عن الاعين اهمية الاسهام الذي قدمه كتاب القصة الشباب في استثمار بعض الجوانب القومية — بالدرجة الاولى ، والانسانية — بالدرجة الثانية ، من الموضوع الفلسطيني . فقد تحدثوا عن النضال العربي عامة والفلسطيني خاصة وصوروا جوانب مختلفة من عملية القتال وركزوا على قيم الصمود والتضحية والبسالة (٢٠) ، كما صوروا جوانب من مأساة اللاجئين الفلسطينيين وعذابهم وتشتتهم واكدوا على صبوة هؤلاء للعودة وحنينهم الى الارض المحتلة وتحينهم شتى الفرص للوصول اليها (٢١) ،

ولم ينسوا كذلك ابراز المعنى الاساسي للنكبة — وهو المعنى السياسي، وفي هذا المجال كانوا جريئين في فضح خيانات الحكام ومهاجمة التهاون والتخاذل ، وتوجيه اصبع الاتهام نحو الاستعمار ، ولكن هذا الجانب السياسي بالذات لم يتضح في ابعاده الخاصة الا بالتدريج وبعد ان دخلت سورية والاقطار العربية المجاورة لفلسطين في تطورات سياسية عنيفة نتيجة لتأثير نكبة فلسطين بالدرجة الاولى ،وسنرى امثلة من ذلك فيما بعد .

الجيل الجديد والقيم الايجابية في التجربة :

تكشف قصص الجيل السوري الصاعد في الخمسينات عن قدرة على ابراز القيم الايجابية من بطولية وانسانية في موقف العربي من الصراع سواء في نضاله أو في معاناته ، ويحس المرء في قصص الشباب بلمسات انسانية مؤثرة تكاد تفتقر اليها في كثير من الاحيان قصص الجيل الاقدم الغارقة في العواطف العامة والمثقلة باللفظية والاسلوبية ، فكأنما بدأ الجيل الجديد يتعرف على لعبة العواطف الابدية في الحياة وفي الفن على السواء ، واخذ يدرك ان لكل موقف عاطفته الخاصة سواء من حيث نوعها او من حيث زخمها ، وان هذه العواطف — لكي تكون مقبولة ومؤثرة — يجب ان تقاس بميزان حساس لا ان تقدم بدون كيل على الطريقة الحاتمية . وبالطبع يتحدث المرء هنا عن بوادر اتجاه عام ولا يعني ابدا وجود مثل هذا الفرق الدقيق بين كل كاتب من الجيل القديم ونظيره من الجيل الجديد ، وما اكثر الشبان الذين كتبوا عن فلسطين وهم غارقون في العاطفية من قمة راسهم الى اخمص قدمهم .

وقد اختار كتاب الجيل الجديد ، بطبيعة تطلعاتهم النفسية من جهة ، وبنتيجة الاحداث السياسية في الخمسينات من جهة اخرى، تلك الموضوعات الاقرب الى الروح النضالية او الانسانية . وكانت بطولة المقاتلين ، ولا سيما من افراد الجيش العربي السوري وضباطه ، موضوعا محببا لهم ، وقد اتيح لعدد من كتاب القصة ان يعيشوا حياة الجندي المقاتل من خلال خدمتهم الالزامية في الجيش ، كما وفرت لهم مجلة الجندي مناخا فنيا مناسبا لموضوعات البطولة. ثم ان جو النكبة القاتم اخذ يتبدد في اواسط الخمسينات لصالح تطلعات قومية كبرى اسهم فيها الجيل الناشيء الى اقصى حد .

ويمكن اعتبار (فارس زرزور) (٢٢) الممثل الاول لهذه الظاهرة ، سواء من حيث حجم انتاجه المتعلق بالموضوع الفلسطيني او من حيث المستوى الانساني والفني لهذا الانتاج . وفي معظم قصصه تتوافر عناصر فنية اساسية منها وحدة الانطباع والتركيز على لحظة نفسية او موقف نفسي ورصد الحركة النفسية النوعية للاشخاص ولا سيما الجنود منهم، والتأكيد على ارتباط الانسان بالتراب بحيث يكون انسلاخه عن ارضه انسلاخا عن وجوده الحقيقي . وعلى الرغم من وجود صدوع فنية ومنطقية في كثير من قصص فارس زرزور فانه قليلا ما يخفق في اعطاء كل قصة نكهتها الانسانية المناسبة واختتامها، عندما يواتي الموضوع ، بومضة ايجابية تشير الى افق جديد يفتح امام الحياة . . وقد ساعد فارسا منبته الطبقي وتجربته الفنية في الجيش على التفاعل مع جوانب مهمة جدا من المأساة ومن الصراع ولبعض ما كتبه من القصص قيمة فنية الى جانب القيمة التاريخية : ولكنه احيانا يغفل الشرط الفني الى درجة لا تصدق . ولعله من المفيد لجلاء جوانب الموضوع ان نقف عند بعض قصصه :

---

(٢٠) — انظر مثلا القصص التالية التي نشرت بين سنتي ١٩٥٢ — ١٩٥٤ في الجندي :
— « مذكرات ام » لعدنان خماش .
— « بطل لا ينسى » لسليمان جابر .
— « عجلت اليك ربي لترضى »، منذر سراج .
— « العريف » ، لمحمد حيدر .
— « القافلة التي مرت » ، لشوقي بغدادي .
— « قبلة النصر » ، رياض قادري .
— « سباق الى الموت » سعيد فائز .
— « المطر » ، محمد كامل صالح .
— « رسالة من الميدان » ، فارس زرزور .

(٢١) — وان كان هذا الموضوع قل اليرا عند كتاب الجيل الاقدم ، ويعود للدكتور بديع حقي فضل كبير في معالجة هذا الموضوع .

(٢٢) نشر فارس زرزور مجموعتين من القصص هما : « حتى القطرة الاخيرة » ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ايار ١٩٦١ ،و « ٤٢ راكبا ونصف » ، دمشق ،١٩٦٦ ، وذلك بالاضافة الى عدد من الروايات ، وقد ولد فارس زرزور سنة ١٩٢٨ لاسرة فقيرة في حي الميدان الشعبي بدمشق ، وبدأ حياته معلما ثم ضابطا في الجيش واحترف الكتابة بعد ذلك .

١ ـ في قصته « حفنة من تراب » (٢٣) نجد التأكيد على وجود البذور الوطنية عند الجميع. ان بطل القصة محمد الجاجة ، مغترب سبق له ان هاجر من قريته في فلسطين بعد ان توفي والده وترك له عبئا ثقيلا من الدين ،ويقيم محمد الجاجة عشر سنوات في البرازيل ثم يتاح له ان يقصد فلسطين زائرا مع فوج من المغتربين ، وفي نيته ان يصطحب أمه ويعود بها الى البرازيل . ويصل قريته فيجد ابناءها مستعدين لقتال الاعداء الصهاينة وقد اصبحت زينتهم الوحيدة البنادق على اكتافهم وامشاط الرصاص على صدورهم . ويسأل عن امه فيجد انها توفيت قبل ثلاثة اشهر من وصوله ، ويزور قبرها فيجده الى جانب قبر ابيه . ويتحرك في اعماقه شعور عميق ، ويكتشف انه يملك في ارض الوطن شيئا ثمينا لا يمكن ان تاتي بمثله كل امواله في المهجر . ويقضي ليلته عند قبر والديه يحرسهما كما يحرس ابناء القرية اشياءهم الثمينة ، وهم يتوقعون هجوم اليهود في اية لحظة. وفي مساء اليوم التالي يتلقى مكتب المغترب محمد الجاجة في البرازيل البرقية التالية :

بيعوا كل شيء وارسلوا المال الى العنوان التالي : تل الزيوان ، يافا ـ فلسطين .

ويلاحظ في هذه القصة ان الكاتب يعزف على وترين متناظرين هما الحس الانساني والحس الوطني عند الناس ، ويحاول ان يتوصل الى قلب محمد الجاجه من المنسحب الى المنتمي وطنيا وانسانيا . ويكاد يلجأ الى القسر في عملية التحويل هذه . وقد كانت مهمته تكون اسهل لو لم يكن ندى محمد الجاجه من الارتباطات المالية في المهجر ما هو كفيل بان يشل الارتباطات الانسانية والوطنية ـ كما علمتنا التجربة . وتنضح القصة من أولها الى آخرها بالايجابية وبالروح التفاؤلية ، ويتقبلها الانسان على الرغم من كل ما فيها من الثغرات ، وهي لا تفتقر الى التشويق .

٢ ـ وفي « شجرة البطم » يرتاد المؤلف زاوية انسانية خاصة جدا من زوايا الحياة النضالية . يقف الضابط ، بطل القصة ، امام شجرة البطم الوحيدة في « تل العزيزيات » (٢٤) وتنثال عليه الذكريات. لقد كان أبوه الشهيد جنديا في كتيبته وكان على هذا الضابط ان يقود المعركة وان يوجه جنوده للاشتباك مع العدو . ويؤتى بأبيه جريحا على نقالة ويلقي ابوه ما يشبه الخطاب الوطني أمام شجرة البطم قبل ان يسلم الروح :

« انظر الى هذا التراب ، كنت اسكن فيه فسمعته ينادي بصمت: انني ظامىء . اسقني قليلا من دمك لانبت لك شجرة الحرية ... »

وضم قبضته الى صدره ...

وتنتهي القصة على النحو التالي :

« لا تزال شجرة البطم منتصبة صامتة ، وتل العزيزيات لم يفقد سوى قبضة من تراب اطبق عليها والدي بأصابعه وظل يضمها الى صدره الدامي وروحه تصعد به الى السماء » (٢٥) .

وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يوجه الى هذه القصة من انتقادات فنية ولا سيما من ناحية اعتمادها على الخطابية ، فانها تظل عملا فنيا مؤثرا يستطيع أن يشد الانسان الى جوه وأن يستدر الدمع من عينيه . وان حرارة الصدق هنا تتجاوز كل المواصفات الفنية .

٣ ـ وفي قصة (الدخان) يرسم فارس جوا عدميا لحياة اللاجىء. انه هنا اللاجىء الذي تتآزر عليه عوامل الجوع والثكل والذل والتشرد والياس . ويبدو لنا اللاجىء وحيدا في خيمة لا فرق بينها وبين القبر وذلك بعد ان ماتت امراته . وتذهب ابنته الصغيرة لجني الحطب وينهمك طول الوقت باشعال النار ولكنه يفشل في تبديد سحب الدخان الصاعدة من الحطب ولا يرى سوى الدخان .

وينجح فارس هنا في وضع اللاجىء في جو قاس مرير ومثير ، وينقلنا بذلك الى أوج حدة المأساة . ويزيد من تقديرنا للقصة أنها صورة وصفية كاملة لا تعتمد على التحادث ومع ذلك توفر عنصر التشويق. وفي القصة وحدة انطباع وتركيز وتوجيه ، ويلفت النظر فيها التعليق التالي :

« وانه لما يدعو الى البكاء والضحك معا ان هذه الجمادات التعيسة الزرية تحس وتشعر بانها أحسن حالا وأجل قدرا من هذه الارواح الانسانية التي تمضغها في أحشائها » (٢٦) .

وعلى الرغم من عدم استواء التعبير في هذا التعليق ـ وهي مشكلة عانى منها فارس في بدء ممارسته للكتابة ـ فان القارىء لا يخفق في تلمس الفكرة البعيدة التي رمى اليها الكاتب . ان حالة اللاجىء لم تتدن الى درجة الصفر فحسب بل تجاوزتها الى ما هو أدنى من ذلك . وليست المسألة هنا مسألة تشبيه اللاجىء بالحيوان أو بالجماد . انها ابعد من ذلك . فالانسان هنا يسف الى ما دون الجماد ، ويثير حركة ما في الجمادات لانها تحس انه ليس سوى قطعة جامدة أمام مصيره الدخاني ، ومع ذلك لا أحد يحرك ساكنا . ويخيل الى المرء أن هذه القصة تكاد تنجح في لعبة قلب الحقيقة مجازا والمجاز حقيقة . وهذا هو سرها .

لقد أغنى فارس زرزور الموضوع الفلسطيني بمثل هذه الومضات الموجهة الى زوايا مظلمة من النكبة ، ورفع بها من مستوى قصة النكبة . ولكنه مقابل ذلك تساهل كثيرا في عدد من قصصه ، وقدم احيانا مشروعات قصص فيها مادة خام غير مستساغة بحد ذاتها حينا وغير مصقولة حينا آخر . وعذره بالطبع معروف ـ وان لم يكن مقبولا عند الكثيرين ، وهو أنه سارع في بعض الحالات الى التجاوب مع المتطلبات الملحة قبل المتطلبات الفنية .

الجيل الجديد وادانة التخاذل الرسمي :

ويمثل لنا هاني الراهب (٢٧) في قصته القصيرة « مقعدان في صالة التمثيل » (٢٨) وجها آخر من وجوه أدب النكبة . ففي هذه القصة ذات الطابع الرمزي يهجو المؤلف الموقف العربي الرسمي من قضية فلسطين في تلك المرحلة . ويعتبر القضية الفلسطينية على المستوى الرسمي وجودا فارغا من المضمون ، أما أبناء القضية أنفسهم فمبعدون ومنفيون ومحرومون من المشاركة فيها . ان السلطات الرسمية تحتفظ لنفسها بحق معالجة القضية بالاسلوب الذي يروقها وتحرم أبناء الشعب فرصة الاتصال بقضيتهم والدفاع عن حقوقهم وأعراضهم . وتدور هذه القصة في رحاب جامعة دمشق (معقل الوطنية والنضال في تلك الفترة) . ويقدم لنا الراوي وزميله عثمان وهما يحاولان الحصول على بطاقتين في حفلة سمر تقيمها الجامعة ، ويخفقان فيحاولان الدخول دون بطاقات فينقض عليهما أعضاء اللجنة التنظيمية ويخرجونهما بالقوة بعد عراك عنيف ، ويقنع البطلان أخيرا بترك المسرح لاصحابه .

وتتحرك القصة بوساطة رموز شبه واضحة ، فوصال اخت عثمان وخطيبة الراوي تمثل دور فلسطين ـ البراءة والضحية . وخشبة المسرح تعني على الاغلب مسرح السياسة العربية الرسمية ، وربما كانت تعني بالضبط الوسط الرسمي الحاكم في سورية في مطلع الستينات ، وتذكر أوصاف أحد أبطال القصة (الدكتور نظام الاصلع) برئيس الجمهورية الدكتور ناظم القدسي وقتذاك . ويمثل الجمهور الشعب العربي المصلوب قبالة خشبة السياسة الرسمية الذي يحظر عليه

---

(٢٣) نشرها في الاداب ، ع٧ ، سنة ١٩٥٤ ثم ظهرت في مجموعته (حتى القطرة الاخيرة) .

(٢٤) تل عسكري مهم على الحدود السورية الفلسطينية دارت حوله معارك طاحنة استبسل فيها الجيش العربي السوري وقدم ضحايا كثيرة.

(٢٥) حتى القطرة الاخيرة ، ص ٥٦ . وقد نشرت هذه القصة للمرة الاولى في الجندي ، ع ١٢٠ ، ١٥ آب سنة ١٩٥٢ .

(٢٦) « حتى القطرة الاخيرة » ، ص ٦٩ .

(٢٧) ولد في اللاذقية سنة ١٩٣٩ .

(٢٨) الاداب ، تموز ١٩٦٢ .

الاستماع الى أي حديث سوى تهريج الممثلين ، والجمهور هنا سلبي غير واع وتتطلى عليه الخدعه ، وتمثل (اللجنة التنظيمية) الفئات المشتركة بالحكم في سورية وقتذاك ، وتتصف هذه اللجنة بالشراسة وتتضامن فيما بينها ضد الجمهور .

وتعكس هذه القصة راي شبيبة الجامعة التقدمية في ذلك الحين وتتوافر لها من حرارة الصدق وايحاء الحوار ورشاقته وجمال العرض ما يبيح لنا اعتبارها من اجمل القصص القصيره الفنية التي كتبت حول قضية فلسطين في الستينات .

اتجاه الموضوع الفلسطيني نحو التضج في الرواية

ومن زاوية الموضوع الفلسطيني لفت النظر ظاهرة غريبة في الرواية (٢٩) السورية حتى نهاية عام ١٩٦٧ على الاقل ، وهي ظاهرة عدم تخصص اية رواية بالموضوع الفلسطيني بل عدم تركز اية رواية على هذا الموضوع أو ما يتشعب عنه من جوانب سياسية أو اجتماعية او انسانية . ولعل لذلك اسبابا موضوعية منها أن قضية فلسطين كانت آنذاك تثير من الحرارة والانفعال والتاثر والحمية ما لا يمكن أن يصلح مادة للرواية طويلة النفس . ثم ان فن الرواية كان في تلك الفترة ناشئا هش العروق وأعجز من أن يصمد لمتطلبات الموضوع الفلسطيني . ولا شك ان هناك اسبابا أخرى أكثر خصوصية ، منها مثلا أن الموضوع الفلسطيني حرم في تلك الفترة من فرصة تركيز فئتين مهمتين من الكتاب عليه :

الاولى : فئة الكتاب ذوي الاتجاه الماركسي ممن كانت نظرتهم الايديولوجية تجاه القضية الفلسطينية تختلف عن النظرة القومية العامة لها وتثير نفور الجمهور المتحمس وسخطه ، مما صرفهم بالطبع عن التركيز على معالجة هذا الموضوع في الاصل موضوع خصب لذوي الاتجاه الالتزامي في الادب . وبوجه عام يعتبر نصيب الموضوع الفلسطيني في قصصهم ضئيلا كما وكيفا حتى سنة ١٩٦٧ .

الثانية : فئة كتاب النزعة الحداثية (مودرنزم) الذين انصرفوا اصلا الى تقليد الموضوعات الغربية بتاثير شعورهم بالخيبة المرة بسبب الهزيمة القومية وبسبب عوامل اخرى اجتماعية . الا أن شدة الصدمة لم تتح لهم أن يبصروا الصلة بين شعور الخيبة والضياع الذي كانوا يعانون منه وبين السبب الاساسي لهذا الشعور وهو النكبة القومية الكبرى عام ١٩٤٨ . وبدت لهم القضية الفلسطينية بعيدة عما ظنوا انه القلق العصري الذي يعانون منه .

وقد آفردت بالذكر هاتين الفئتين لان فن الرواية العربية قام بالفعل على أكتاف كتابهما . على أن حكمنا السابق يبقى صحيحا وهو انه يندر أن يخلو انتاج أي كاتب سوري في فترة ما بعد النكبة من اشارة الى الموضوع الفلسطيني بشكل أو بآخر .

ولعل أبرز كتاب هذه المرحله في مجال الرواية الاستاذ مطاع صفدي (٣٠) في رواية «جيل القدر» (٣١) الذي يجعل الشعور بالنكبة القومية في فلسطين محركا اساسيا من المحركات التي تدفع أبطاله باتجاه التفاني في النضال القومي . ويبدو واضحا في هذه الرواية القومية الشعور الشعبي العارم ضد الحكام من الرعيل الاول الذين شاركوا في مؤامرة سقوط فلسطين والذين تؤكد الرواية انهم « كانوا يشترون الاسلحة ويرسلونها الى اليهود ... من مال العرب » . وفي هذه الرواية ايضا اصرار على الطابع القومي للنكبة ، وهو ما يميز الفهم السوري للقضية الفلسطينية طوال المرحلة التي تشملها هذه الدراسة . وتعكس رواية « جيل القدر » كذلك مدى عمق الشعور بالاثم الذي كان يحفر في صدر المثقفين والجماهير من جراء الاقتناع العام بتقصير الجميع في واجبهم تجاه القضية وفي اغضائهم عن خيانات الحكام وتآمرهم .

ولكن الاهم في ذلك ان الرواية تعتبر النكبة الفلسطينية عاملا من عوامل تفجر الوعي القومي لدى الفرد العربي وفاتحة مرحلة جديدة من الثورة الاصيلة ، يقول نبيل بطل الرواية : (... وهذا هو ما فعلته الكارثة بالامة العربية ، لقد انطقتها من سدرتها، هكذا يقول السطحيون، وأما الحقيقة فان ضياع فلسطين الموقت هو انذار للامة بان تمتلك ذاتيتها حقا لا قشورها ، بان تعتلي فوق واقعها المريض بان تمزق قناع الوهم عن بصيرتها ، بان تحفر في كهفها لتصل الى مصيرها الحقيقي ... لقد كانت فلسطين بدء البعث الحقيقي لامتنا ، ارجعتها الى خاصيتها الاولى ، تحدت أصالتها) .

لكن نبيلا لا يكتفي بهذا التفسير الثوري الوجودي ذي الطابع العام بل يستمر في التعليق على قضية فلسطين من خلال المصطلحات الوجودية الاكثر تخصيصا :

١ ــ فلسطين كانت دعوة لحرية احق ، لوجود احق ، لبعث اشمل واعمق .

٢ ــ تحدي فلسطين سيحقق عصر المعجزة بالنسبة للانسانية ــ اذا كانت ارادة الامة موجودة .

« عوضا عن أن ينهار العالم يمكن ان يتابع حياته الاصيلة بامة اصيلة تطعمه بحريتها الغازية المحررة الجديدة » .

٣ ــ وعلى ذلك تكون الامة العربية بمثابة فرد يستعيد وجوده وباستعادة وجوده تنفتح قواه .

وفي (جيل القدر) شخصية فلسطينية مهمة من خلال منطق الرواية ، ويمكن ان تكشف لنا جانبا من التصورات السائدة في مرحلة الخمسينات حول الشخصية الفلسطينية . يقدم لنا هاني في الرواية بوصفه شابا فلسطينيا لاجئا في دمشق ، يتمتع بثقافة انكليزية واضحة، وهو شعلة من الحيوية ، معاق في الظاهر ودنيوي وله علاقات اجتماعية متشعبة ، وهو لا يستقر على حال ، كانما يشكو من قلق داخلي أو مطاردة ميتافيزيقية ، وهو دائم الترحال بين سورية وأميركا ، وكانه يعيد مأساة اليهودي التائه ، وهو يشعر بالصغار ازاء العالم وينطوي على احساس حاد بالمرارة .

ويبدو الكاتب حائرا بشان بطله الفلسطيني ، ولعله يعكس هنا حيرته بين الشعور العام تجاه الفلسطينيين الذي ساد في فترة معينة في الخمسينات بتاثير عوامل نفسية عامة رفدتها الدعاوة الاجنبية وبين منطلقاته القومية النظرية التي لم تكن لتسمح له بمجاراة بعض الاتجاهات التي كانت تهمس بادانة الفلسطينيين بحجة تخليهم عن بلدهم وبيعهم اراضيهم والتي كان بعضها يذهب الى زرع بذور الشك بهم لدرجة اتهامهم بالجاسوسية . لقد كان مطاع صفدي بوجه عام متعاطفا مع شخصياته في (جيل القدر) وكان ترفع البطل (نبيل) عنهم مصحوبا بنوع من الرعاية الفوقية . ولكن هذا التعاطف لم يستطع أن يرفرف بجناحيه على (هاني) الفلسطيني . ان مجرد اختيار هذا النمط الفلسطيني يكشف عن تاثر عام بمنطق المرحلة . ان هاني مدان طوال الرواية ، وهو يوصف بالسافل المتشرد وتكشف الشخصيات الاخرى عن استعداد لاضطهاده لا يقره المؤلف ولكنه لا يستطيع أن يبتره . بل على العكس من ذلك يؤكد باستمرار على الجانب الانهزامي من شخصية (هاني) ، وفلسفته الخاصة (الفلسطينية) ، والمؤلف يرفض هذه الفلسفة السلبية ولكنه يبدو غير ميال الى انكار تعميمها على الجميع او على التفتيش عن موقف اعتذاري لوجودها . ويتكرم المؤلف على الشخصية بان يسمح لها بالشعور بالمأساة بشكل حاد ومدمر وممزق احيانا ، ولكن هذا الشعور لا يتمخض عن موقف ايجابي . وهنا تبدو حيرة المؤلف واضحة بين ميله الى ادانة الشخصية وواجبه في تبرئتها . ولذلك نراه يختار (هاني) لدور غريب يمثل هذه الحيرة . فهاني هو الذي يسلم البطل نبيلا الى مباحث الطاغية ، وتثبت عليه التهمة وتثور ثائرة (الجماعة) ولكن المؤلف يعود بعد ذلك فيبرئه ويجعله عضوا في المنظمة وفي الشرطة السرية في وقت واحد ، وينسب اليه القيام بدور الايقاع بنبيل رغبة في انقاذه في نهاية المطاف . لماذا اختير الفلسطيني لهذا الدور المزدوج ؟ هذا هو السؤال الذي يتبادر للمرء عند قراءة

---

(٢٩) استعمل مصطلح القصة للمعنى العام Fiction ، وذلك مقابل الدلالة النوعية لمصطلحي الرواية Novel والقصة القصيرة Short Story

(٣٠) ولد في دمشق سنة ١٩٢٩ .

(٣١) بيروت ، ١٩٦٠ .

الرواية . ويشعر القارىء بعد ذلك ان تبرئة (هاني) لم تكن صريحة بل جاءت بشكل موارب .

ثم ان المؤلف يسلب هاني الحق في ان يكون محبوبا من قبل زميلاته . ان شخصية هاني – كما تبدو في الرواية – كانت خليقة بان تجعله جذابا لطراز معين من الفتيات البرجوازيات في الجامعة ، وبالفعل تقع ليلى في حبه ، وهو موقف طبيعي ، ولكن نبيلا ينكر ذلك عليها ، ويفسر حبها لهاني بانه ناتج عن الشعور بالذنب تجاهه وتجاه الفلسطينيين بسبب معرفتها بخيانة والدها وتآمره وهو الذي كان من المسؤولين البارزين اثناء النكبة (ص ٩٢ – ٩٤) . فكان (هاني) لا يجوز أن يحب الا تسبب خارج عن ذاته . وبالطبع كان الانسان خليقا ان يبتعد عن مثل هذه الاستنتاجات لو ان هناك شخصيات فلسطينية اخرى تمثل مواقف مختلفة في الرواية ، ولكن اكتفاء المؤلف بشخصية هاني وحده تبيح لنا التوصل الى الاستنتاجات السابقة .

على أن الملاحظات السابقة يجب ان لا تنسينا أنه من بين جميع الاصوات القصصية السورية التي هفت للقضية الفلسطينية وتجاوبت معها حتى عام ١٩٦٧ كان صوت مطاع صفدي ابعدها غورا واصدقها قومية وأعمقها وعيا ، في حين كانت الاصوات الاخرى اكثر استجابة لدواعي العاطفة والتأثر أو في احسن الحالات لدواعي الانطباعات المعجلة .

خلاصة القول

والخلاصة أن الموضوع الفلسطيني في القصة السورية بين النكبتين (١٩٤٨ – ١٩٦٧) لم يأت على تلك الدرجة من القوة التي يتوقعها الانسان في أدب بلد عربي ظل ابناؤه دائما يعتبرون القضية الفلسطينية قضيتهم الاولى والمركزية ، ولعل السبب الرئيسي في ذلك هو حداثة فن القصة الناشىء وافتقار الكتاب الى تقليد أدبي ذوي في هذا الفن يمكن أن يقيسوا عليه ويستفيدوا من تجربته . على أن هذه الحقيقة يجب ان لا تمنع المرء من التنويه بالتطور الباهر الذي قطعته القصة السورية خلال حوالي عشرين عاما في معالجة هذا الموضوع الجليل .

ومن ناحية المضمون يشمل الموضوع الفلسطيني في القصة السورية النواحي الرئيسية التالية :

آ – وصف الفلسطينيين انفسهم ، ولا سيما بعض مظاهر حياتهم قبيل النكبة ومعاناتهم أثناء شهور الصدام الدامي ، وخروجهم من البلاد وما ترتب على ذلك من تحولهم الى لاجئين في الخيام ، وكفاحهم في سبيل العيش والبقاء ، وحنينهم الى فلسطين وتعلقهم بمفهوم العودة ، وبعض الجوانب الاخرى المتفرعة عن هذه الامور الاساسية .

ب – معالجة الناحية السياسية من القضية ، وأبرز ما في هذه المعالجة الهجوم على الحكام العرب الذين باعوا فلسطين ، ويكاد يكون هذا الهجوم (اللازمة) المتكررة في جميع القصص ، وهناك بالمقابل تاكيد على تعلق الفلسطينيين بوطنهم وحقهم فيه وتضحياتهم وبطولاتهم في سبيله . وهناك ما يشبه الاجماع على أن الفلسطينيين كانوا أولى بالدفاع عن وطنهم وانقاذه لو أنهم اعطوا الامكانات والامدادات اللازمة ولو ان الحكام العرب لم يفروا بهم ويخدعوهم .

جـ – التنديد بالعدو الصهيوني وتصوير وحشيته وغدره بالمدنيين العزل وحقده على العرب مع تأكيد على أن الاستعمار هو الذي صنع من (اليهود) شيئا مذكورا وهو الذي اعد خيوط النكبة وحاكها ولا سيما الاستعمار البريطاني ، وان كان هذا التاكيد غير مصحوب بتحليل وربط كافيين .

د – الربط بين القضية الفلسطينية والثورة العربية . ويبدو بوجه خاص في انتاج الجيل الجديد حيث نجد تركيزا على هذا الربط من خلال اعتبارين رئيسيين : الاول ان النكبة الفلسطينية كانت عاملا رئيسيا من عوامل تفجر الثورة العربية ، والثاني : أن تحرير فلسطين يؤلف جوهر القضية العربية . وتبدو هذه الناحية بارزة في أدب الكتاب القوميين الشباب .

هـ – وصف الجانب الحربي من الصراع : وهنا نجد تأكيدا خاصا على بسالة المقاتلين العرب السوريين وتوجههم الى المعركة انطلاقا من ايمان أكيد بعدالة القضية العربية وبالنصر والتضحية – وقد رافق ذلك وصف لجوانب انسانية غنية في مواقف القتال .

اما الشخصية الفلسطينية فهي بوجه عام شخصية معانية مناضلة ومحببة ولكنها أقل حظوة عند الكتاب من القضية نفسها حتى ليبدو احيانا ان الحماسة النظرية الدافقة للقضية لا تتناسب تماما مع الموقف العملي من ابنائها الذين يحسمونها ، اذ يبدو هذا الموقف أقرب الى الفتور احيانا – كما هو متوقع طبعا – لان الصلة اليومية غير الموقف النظري من جهه ، ولان الملابسات العملية للجوء الفلسطيني لم تتح لصورة الفلسطيني المناضل او المنكوب أن تاخذ بعدا تجريديا ناصعا . وعلى العموم يمكن النظر الى الشخصية الفلسطينية في القصة السورية من خلال التصنيف التالي :

ا – الرجال الشجعان الاشداء الذين تكمن مأساتهم الحقيقية في انه حيل بينهم وبين أداء واجب الدفاع عن الوطن خلال احداث عام ١٩٤٨ وبعدها ايضا ، وذلك بسبب تدخل الحكام العرب آنذاك .

ب – الضعاف من اطفال وشيوخ ونساء ممن وقعوا ضحية اختيارين احلاهما مر ، فاما أن يمكثوا في بيوتهم وينتظروا قدوم العدو الذي لم يكن يتورع عن ارتكاب المذابح الجماعية بدم بارد أو على الاقل كان يسومهم سوء العذاب ويذلهم ويضطهدهم . واما واذ يهاجروا من بلادهم ويتحولوا الى مشردين مبعثرين في الاقطار العربية المجاورة . واذ يصبحون كذلك فانهم – على نحو ما تصورهم القصص – ينهمكون في كفاح مرير لتحقيق هدفين عاجلين رئيسيين : أولهما كسب لقمة العيش ، وثانيهما محاولة اعادة بناء الاسر التي تمزقت وتفرق ابناؤها ايدي سبا .

* * *

وعلى الرغم من نبل الدوافع التي أملت معالجة القضية الفلسطينية في القصة السورية ، فان جمهرة القصص – ولا سيما في اوائل الخمسينات – تكشف عن سطحية في فهم معنى النكبة ومسبباتها مع ضيق في النظرة السياسية وغياب كامل للتحليل . وهناك اخفاق ذريع في تجاوز التجربة القومية للنكبة الى افق انساني ارحب وهو الامتياز الذي كان يمكن أن تفرد القصة نفسها به عن الفكر السياسي المتوتر الذي كان يسود المرحلة . ومن الناحية الفنية تبدو التجربة مفتقرة الى التمثل والموضوعية ، وهي تعرض من خلال الوعظ والانفعال والاسراف في رقة المشاعر في أغلب الحالات .

ويرجع ذلك في جانب منه الى اخفاق الكتاب في سلخ أنفسهم عن الاحداث اليومية للقضية وبالتالي بلورة موقف شامل منها ، وكذلك الى ان المأساة ظلت لفترة طويلة تدخل في تطورات صارخة تتولد عنها باستمرار مظاهر وأوضاع مفاجئة ، وباستثناء حالات معدودة جرت الاشارة الى معظمها في هذا البحث . ظلت القصة القصيرة السورية حتى سنة ١٩٦٧ تتغذى من حليب الاثداء العاطفية للموضوع الفلسطيني. اما الرواية فقد ظهر فيها الموضوع الفلسطيني بشكل جانبي ولم يفلح اي عمل روائي بالتمركز حول الموضوع الفلسطيني .

واخيرا لا بد أن يلفت نظر الدارس ذلك الفارق الكبير في المقدرة على التحليل وفي طريقة المعالجة بين الجيل الاقدم الذي لم يستطع تجاوز العاطفية والشكلية وبين الجيل القومي الناشىء الذي عمل على الربط بين القضية الفلسطينية والثورة العربية وكان جريئا جدا في تحديد مسؤولية النكبة وفي التنديدة بالحكام .

وفي الموقفين كليهما – على اي حال – لم يبد ان المضمون الفلسطيني كان من القوة بحيث استطاع ان يطور نمطا تقنيا خاصا به او ان يفرض سمات معينة على التقنيات المعروفة في المرحلة ، وان كان هناك ميل واضح في القصص الفلسطينية الى الخطابة والتقريرية والتلذذ بالوصف المباشر للمعاناة والالم وربما – نتيجة لذلك – الى التقليل من شان العناية بالبنية القصصية وببعض المقتضيات الشكلية .